مفاتيح جديدة

إسراء عزّام

2013 كانت السنة التي تخرجت فيها من الكلية تخصص حاسوب. كانت الحياة تبدو لي وردية وواعدة. بدأت بتقديم طلبات توظيف وكلي أمل أن أحصل على وظيفة في غضون أسابيع قليلة. لكن ما حدث، جعلني أصاب بخيبة كبيرة.

مرت شهور عدة، ولم أتلقَّ سوى اتصال هاتفي واحد من مديرة روضة في بلدتي، علمت بأنني تخرجت ولم أحصل على وظيفة، فقدمتُ اقتراحاً أن أكون معلمة بديلة في روضتها لصف البستان، فقابلت هذا الاقتراح بالرفض التام، لكن بإقناع من عائلتي، مبررين ذلك بأنني سأقضي بعضاً من الوقت حتى أحصل على وظيفة في تخصصي، قبلت على مضض ... .

لم أستطع النوم في تلك الليلة وأنا أفكر بما سأفعله مع أولئك الأطفال الذين لا أعرف شيئاً عن عالمهم، وماذا سأقدم لهم وأنا تلك التي إن التقت بأحدهم، لا تعرف كيف تحدثه مدة عشر دقائق، لكن أقنعت نفسي بأنها وظيفة مؤقتة، وسأحصل منها على راتب أستقل به مادياً حتى أجد الوظيفة التي أرغب فيها.

استقبلتني مديرة الروضة في يومي الأول بالكثير من القوانين التي أملتها عليَّ دفعة واحدة، ركزت فيها على شكلي الخارجي وملابسي؛ ممنوع ارتداء الكعب العالي، ملابسك يجب أن تكون مريحة، أظافرك يجب أن تكون مقلمّة بشكل دائم، يفضل ألَّا ترتدي الإكسسوارات ... وأخيراً قدمت لي خطة الروضة، وما هو مطلوب مني إنجازه مع أطفال الصف. عدت إلى بيتي بعد هذه المقابلة المملة وأنا أحمل الكثير من الغضب في داخلي متسائلة: هل كل هذه القوانين لأجل معلمة أطفال بعمر 4 سنوات؟ ولأجل وظيفة أنا لا أريدها؟

بدأ اليوم الأول لي، كمعلمة أطفال كما قد أُملي علي، بتلاوة بعض آيات من القرآن، ثم بالحديث الصباحي، ثم أنفذ البرنامج بحذافيره؛ وقت مخصص لإنجاز أوراق العمل، ووقت آخر للعب، وآخر لرواية القصة ... وهكذا. كنت أكرر البرنامج كل يوم حتى أصبح ورتيناً يومياً. كنت كلما ألتقي بإحدى زميلاتي اللواتي درسن معي في الكلية، كنت أقول لهن إنني أعمل سكرتيرة في روضة في بلدتي، متجنبة ذكر أنني معلمة أطفال؛ خوفاً من ردة فعلهن بأن دراستي تختلف عن مجال عملي.

استمر الأمر هكذا حتى نادتني المديرة، وقالت لي:

– إسراء، مؤسسة عبد المحسن القطان تنظم دورة لمنهجيات الدراما في التعليم لمربيات الطفولة المبكرة،

وأنا أريدك أن تمثلي روضتنا وتحققي فائدة لك.

- دورة شو، ودراما شو، أنا بعتذر منك، أنا هون بديلة، وأصلاً أنا بدور على وظيفة ثانية وما بدي لا أستفيد ولا شي.
- «بس أنا رفعت اسمك، وبدي تعبي الطلب».

عبأت الطلب وأرسلته وأنا أحدث نفسي قائلة: «لشو الدورات، ما أنا بعطي الأولاد كل يوم إللي مطلوب مني بالخطة، شو رح أستفيد من هذا كله؟».

يرن هاتفي مجدداً، وإذا بصوت يتساءل: هل أنت المربية إسراء دغرة؟ لقد تم قبولك ببرنامج القطان، ومن ثم بلغتني بموعد اللقاءات الأولى. إنها المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة «المربية إسراء»، يبدو أنني يجب أن أعتاد على سماعها كثيراً في الفترة القادمة.

اللقاء الأول، قاعة ممتلئة بما يقارب الأربعين مربية، الأستاذ مالك الريماوي يقف في وسط القاعة، ويطلب من كل منا أن تتخيل باباً كبيراً، ليس مهماً عما يعبر هذا الباب، حيث يمكن أن يكون الاحتلال، أو العادات والتقاليد، أو ضغوطات معينة نواجهها في حياتنا، أو عوائق، لكن أود منكن التركيز على المفتاح الذي يمكنه فتح هذا الباب. ثم كرر المفتاح هو الأهم، وعلى كل منكن أن تتخيل المفتاح الذي يمكنه فتح ذلك الباب. رسمت المفتاح دون أن أبذل أي جهد يذكر، وكان مفتاحاً تقليدياً عادياً، ولكنني عندما رأيت مفاتيح الأخريات، أدركت أنه كان يتحدث عن شيء مختلف. انتهى اللقاء، وعدت إلى البيت وأنا أحمل معي ذلك السؤال الكبير الذي دار في اللقاء، ما هو ذلك الباب الذي أريد فتحه؟ وما هو المفتاح الذي أحتاجه؟

انتهت أيام التدريب الثلاثة الأولى في البرنامج، وشعرت فيها أن شيئاً جديداً قد حدث معي؛ شعرت بمسؤولية أكبر اتجاه الدور الجديد الذي وضعت فيه. عدت إلى دوامي في الروضة وأنا أشعر بحماس شديد للعمل مع أطفالي. فصل دراسي جديد أستقبله بدافعية عالية، وبشغف كبير ناتج عن المعرفة الجيدة التي اكتسبتها في فترة قصيرة من لقاءات «القطان»، وأريد أن أجربها مع أطفالي.

لم أكن أدرك أهمية القصة للأطفال، وأنها تشكل عالمهم، ولم أكن أراعي اهتمامات الأطفال وحاجاتهم، كنت أعتقد أنني سأقدم لهؤلاء الأطفال ما يحتاجون من معرفة وانتهى الموضوع، حتى جاء أحد الأيام وكنت أسرد على أطفالي قصة كانت عن أخوين كانا يلعبان بكرتهما التي يحبانها جداً حتى وقعت داخل حفرة كبيرة وعميقة، وبينما حاولا النزول إلى تلك الحفرة، تفاجأ كل منهما بأنها عالم كبير تحت الأرض، تعيش فيه مخلوقات غريبة؛ مخلوقات لا يوجد ما يشبهها على سطح الأرض، مخلوقات لطيفة تشبه الديناصورات. تخيل الأطفال هذه

جانب من تطبيقات المربية إسراء عزام مع أطفال روضة الجنان الأمريكية في رام الله.

المخلوقات وابتكروا قصصاً كثيرة عنها، وتعلمنا الكثير عن عالم الديناصورات، الأمر الذي ساعد الأخوين على العودة إلى سطح الأرض. بالنسبة لي، انتهت القصة هنا، لكن بالنسبة للأطفال لم تنتهِ، حين توقفت إحدى الطفلات وقالت لي: «مس طيّب رجعوا، بس وين الكرة، هاي كرتهم إللي بحبوها، وبحبوا يلبعوا فيها مع بعض، كيف رح يلعبوا هلا سوا؟».

سؤال كبير جداً، يطرح اهتمام الأطفال وتساؤلاتهم، لم أهتم أنا بالكرة التي تجمع هذين الأخوين معاً، ولكنها عالم الأطفال، هي مفتاح لكثير من الأبواب نحو التعلم والاستكشاف بالنسبة للأطفال، هنا عاد سؤال أستاذ مالك بالبزوغ، وحينها فقط وجدت الإجابة، المفتاح الذي أحتاجه هو المفتاح الذي سيساعدني أكثر أن أفهم أطفالي وعالمهم واحتياجاتهم، هو المفتاح الذي سيساعدني أنا وأطفالي للدخول إلى عالم الاستكشاف الذي يثير اهتمامهم، والذي يبعد كل البعد عن مفتاح الحاسوب الذي التصقت به فترة طويلة، ولم يفتح لي أي باب حتى اليوم.

كان لهذه الحادثة أثر كبير عليّ جعلني أصر على متابعة انتسابي لدورة «القطان» التي جعلتني أغير كل منظوري نحو الأطفال، ونحو دور المربية، الذي اتضح لي أنه دور كبير جداً، فالمربية هي الأم، والطبيبة، والصديقة. خرجت من عالم التقليد إلى عالم الإبداع، استطعت أن أفهم تفكير أطفالي أكثر، وأن أبني لهم تعلماً يجعلهم أطفالاً قادرين على الاعتماد على أنفسهم، وشغوفين بالتساؤل والبحث.

روضة الجنان الأميركية – رام الله

جانب من تطبيقات المربية إسراء عزام مع أطفالها في الروضة.